شرارة آذار

دعوة للتفكير بصوت مرتفع

INFOSHRARA@GMAIL.COM

العدد٨٠ ٢٥/٨- ٢٠١٣/٨/٣١

ديكتاتور حامي الأقليات

جبهة النصرة..

في "المناطق المحررة"

البحث عن الهوية

أنا عايشة!؟

من نافذتي أطل يا وطني

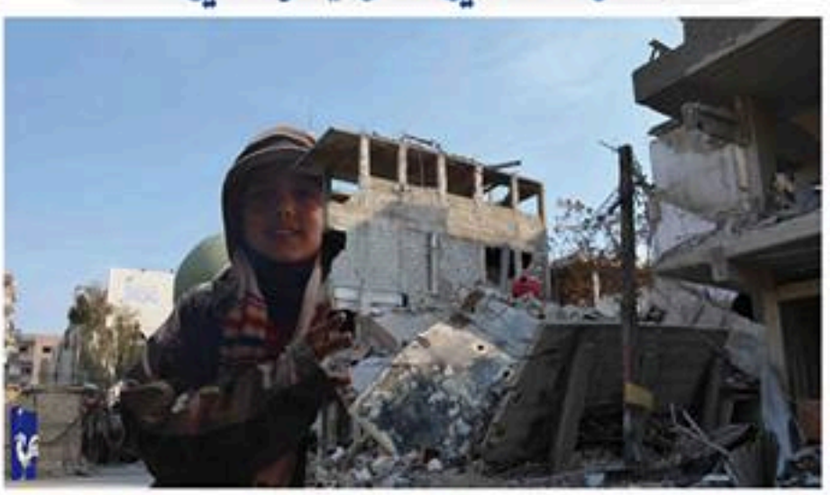

مجزرة كيماوية برقابة دولية

صبر درويش

لم يكن صباح الغوطة عادياً. نسائمه عبقت برائحة الموت المنبعثة من جريمة إبادة جماعية ارتكبها نظام بشار الأسد بدم بارد. حديث استخدام الأسلحة الكيميائية لارتكاب المجزرة طاغٍ على ما دونه، لكنه حديث لا قيمة له أمام مشاهد جثث أطفالٍ بعمر الورود ممددة في الخلاء. جثث لا تحمل آثار دماء الشظايا الصاروخية، متسللة إلى الأجساد النضرة، التي لم تستطع مكافحة الغازات السامة. غازات يصر النظام على نفي استخدامها، لكنه بالتأكيد لا يستطيع إنكار المجزرة.

قد لا تكون هذه المرة الأولى التي يقصف بها النظام السوري، شعبه بالغازات السامة، ولكنها المرة الأكثر هولاً، بعد تعرض بلدات الغوطة الشرقية لقصف هو الأعنف من نوعه، أسفر وفقاً لتقديرات أولية عن سقوط أكثر من ٨٠٠ قتيل، تحت مرأى المراقبين الدوليين الذين يتواجدون في سوريا منذ أيام للتحقيق في استخدام "الكيماوي" في خان العسل.

وفي ما بدا أنه تمهيد لاطلاقه حملة عسكرية واسعة لمحاولة استعادة السيطرة الكاملة على الغوطة الشرقية وريف دمشق، بدأت قوات النظام فجر الأربعاء قصفاً مكثفاً استهدف بداية بلدات حزة وعربين وعين ترما وزملكا. ومع تصاعد القصف، شوهدت صواريخ غريبة من نوعها في السماء. فحسب شهود عيان كانت الصواريخ تبدو كالمظلة في السماء، حيث تنفجر وتتوزع في الجو قبل سقوطها، بعدها بدأ القصف المكثف الذي طال، إضافة إلى البلدات السابقة، مدن دوما وحرستا وكفر بطنا وأطراف حي جوبر الدمشقي.

ومع ساعات الصباح الأولى، بدأ هول المجزرة ينكشف، اذ بدأت النقاط الطبية بالاكتظاظ بالقتلى والمصابين، والذين كان أكثرهم من الأطفال والنساء. وفيما بث ناشطون في الثورة السورية صوراً ومقاطع مصورة تظهر قتلى وجرحى بالمئات جراء تعرضهم لغازات سامة، تضاربت الأرقام حول حصيلة القتلى والمصابين.

لجان التنسيق المحلية تحدثت عن ٧٧٥ حالة وفاة مؤكدة، مشيرة إلى أن الرقم في ازدياد، في حين أعلن ناطق باسم الجيش الحر أن أعداد القتلى بلغت ١١٨٨، موزعين على النقاط الطبية في بلدات الغوطة الشرقية على الشكل التالي، سقبا، ١٠٠ شهيد. كفربطنا، ١٠٠ شهيد. دوما، ١٥٠ شهيداً حمورية، ٣٠٠ شهيد. جسرين، ١٦ شهيداً، بينهم ٣ أطفال. زملكا، ٤٠٠ شهيد، بينما احصائية نقطة بلدة المرج لم تصل بعد.

أما في عربين، فيقول ابو اليسر وهو أحد الاعلاميين في المدينة، "وصل عدد الشهداء في عربين في الساعات الأولى من القصف إلى ٤٠ شهيداً، من بينهم كان ٢٣ طفلاً و١٧ امرأة، والعدد حتماً سيزداد في الساعات القليلة المقبلة". من جهته، أحصى المكتب الحقوقي الموحد في الغوطة الشرقية ١٢٢٨ قتيلاً.

التتمة في الصفحة ٢...

مجزرة كيماوية برقابة دولية

صبر درويش

وأكد الإعلامي همام الحصري، أنه شاهد ما يقارب خمسين طفلا قضوا نتيجة الإصابة بالكيميائي في منطقة زملكا، وأن إحدى النقاط الطبية في منطقة دوما، حيث يتواجد، فيها ما لا يقل عن ٦٥٠ إصابة بينهم ٦١ قتيلا. وأضاف الحصري أنه شاهد عائلات بأكملها قد أبيدت، وأن الأهالي يبحثون بين الجثث عن أطفالهم.

المصابون، الذين تفاوتت التقديرات حول عددهم بين الألفين و٥ آلاف، ظهرت على أغلبهم الأعراض نفسها، وهي شعور بالاعياء والاغماء وحالات من الاختناق وغشاوة بالبصر إضافة لسيلان شديد باللعاب وتشنج بالعضلات، إضافة إلى حالة من الهلوسة وهي أبرز الأعراض التي ظهرت على المصابين في الغوطة الشرقية. ووفقا لما أكده الأطباء في المشافي الميدانية، فإن الغاز المستخدم هو غاز السارين.

من جهته، قال أحد الأطباء العاملين في إحدى النقاط الطبية في الغوطة الشرقية، ويدعى أبو اليزن، إن المجزرة ارتكبت في الساعة الثانية والنصف ليلا بينما "الناس نائمة والشبابيك مفتوحة". وأشار إلى أن أصوات القصف لا يهتم لها أحد بسبب الاعتياد، لكن صوت انفجار الكيماوي خفيف، ما ساعد في انتشار الغاز ودخوله إلى البيوت". وأضاف "أصبحت فرق الإسعاف تفتح البيوت في المنطقة وتجد الكثير من المصابين، أول ساعة كانت تأتي إصابات خطيرة بحاجة لتدبير سريع، وبعد ذلك أصبح من يأتي إما إصابته خفيفة لم تؤد لوفاته أو أنه شهيد". وأكد أبو اليزن "أن عدد المسعفين الذي تعرضوا للإصابة كبير، وقد تم نقلهم الى إحدى النقاط الطبية للعلاج". وأشار الى أن عدد القتلى مرشح للارتفاع بسبب كثرة المصابين وكثرة الحالات الحرجة بينهم.

الناشطون حددوا مكان إطلاق الصواريخ، من نقطتين يسيطر عليهما النظام، وتقعان في الشمال الغربي للعاصمة دمشق. فقد انطلقت الصواريخ حسب شهود عيان من جبل قاسيون، ومن جانب البانوراما على الطريق الدولي لحرستا. وتركز القصف من هذه النقاط على عمق بلدات الغوطة الشرقية، اما الجهة الجنوبية للغوطة فقامت قوات الأسد بقصفها بشكل عنيف ومكثف بكل أنواع الأسلحة الثقيلة. بدأ الهجوم في الساعة السابعة صباحا على أطراف بلدة المليحة وعلى بلدة عين ترما، وشنت طائرات السوخوي أربع غارات في وقت لا يتجاوز النصف ساعة. بينما راجمات الصواريخ لم تهدأ على الاطلاق، يرافقها قصف بالدفعية والهاون.

صحيح أن القصف لم يتوقف على بلدات الغوطة الشرقية وريف دمشق عموما خلال الأشهر الماضية، بيد أن القصف الذي شهدته المنطقة في الساعات الماضية هو الأعنف من نوعه، في رسالة واضحة من النظام أنه اتخذ قرارا باستعادة سيطرته على محيط دمشق الذي تقع فيه الغوطة الشرقية. وهو قرار مدفوع بأهمية المنطقة الاستراتيجية نظرا لمناخمتها للعاصمة دمشق من جهة والتقدم الذي راح يحرزه الثوار باتجاه العاصمة دمشق من جهة اخرى. كما تعتبر غوطة دمشق واحدة من أهم مناطق تجمع القوى الثورية في ريف دمشق، حيث هنا تتواجد أقوى التشكيلات العسكرية والالوية المقاتلة.

في هذا الوقت، تعد بلدات حمورية وحزة وعربين ودوما، من أكثر مناطق الغوطة اكتظاظا بالمدنيين نظرا لتواجد عائلات المقاتلين فيها، وبالتالي فإن النظام كان يعلم مسبقا أن قصف هذه المناطق سيؤدي إلى سقوط مئات المدنيين.

اللافت أن قرار النظام بارتكاب هذه المجزرة جاء بالتزامن مع تواجد اللجنة المكلفة بالتحقيق بمسألة استخدام الكيميائي في دمشق، الأمر الذي عزز من حالة غضب المدنيين الذين أصيبوا بحالة هلع خوفا من اقدام النظام على تكرار القصف. ابو محمد، أحد المدنيين في كفر بطنا، قال "سنسمع بعد قليل أن العالم اجتمع وأنه ندد، وأنه قلق.. ونحن نعلم أنه لا أحد سيتحرك لنجدتنا".

وبالفعل، بينما تعيش سوريا في هذه الأثناء نكبة حقيقية محاولة للمة جثث الضحايا ومعالجة المصابين بما تيسر من امكانات طبية محدودة يفاقمهما الحصار الذي يفرضه النظام على منطقة الغوطة، توالت ردود الفعل المنددة بالمجزرة. الائتلاف الوطني لقوى الثورة السورية أصدر، بيانا على صفحته على "فايسبوك"، اعتبر فيه أنه "تم تجاوز جميع الخطوط الحمراء في ظل تجاهل كامل من قبل الولايات المتحدة ومن قبل الدول التي تدعي صداقة الشعب السوري، فمن حق الشعب السوري ان يعتبر ان لا اصدقاء لديه بعد اليوم في حال تم تجاوز هذه المجزرة بصمت دولي".

ودعا رئيس الائتلاف الوطني، أحمد الجربا "مجلس الأمن للانعقاد بشكل فوري لتحمل مسؤولياته تجاه الجريمة التي ارتكبها الأسد ضد الانسانية باستخدامه السلاح الكيماوي في الغوطة الشرقية". كما طالب "فريق الأمم المتحدة المتواجد في دمشق بهدف التفتيش عن الأسلحة الكيماوية، بالتوجه إلى مكان المجزرة والوقوف عليها".

وأكد الجربا أن النظام السوري "هو المسؤول عن المجزرة المروعة في الغوطة الشرقية، وأن ما اقترفه هو ترجمة لما ورد في خطاب الأسد الأخير حول تعهده بالقيام بكل الأساليب للقضاء على ما سماه "التكفيريين"، موضحا أنه لا يستهدف

Hani Abbas

سوى المدنيين والأطفال والنساء. وأضاف الجربا أنه تواصل مع وزراء الخارجية العرب والغرب لتقوم اللجنة الأممية بالوقوف على ما حدث، مشيرا إلى أن إجرام الأسد الذي لا يعرف سوى لغة القوة، لا يشجع على أي مبادرة باتجاه جنيف ٢".

وفيما طالبت جامعة الدول العربية، فريق المفتشين التابع للأمم المتحدة في سوريا بالتوجه "فورا" الى منطقة الغوطة والتحقيق في ملابسات "الجريمة التي تشكل انتهاكا خطيرا للقانون الدولي الإنساني ويتوجب تقديم مرتكبيها الى العدالة الجنائية الدولية"، اكتفى رئيس فريق الأسلحة الكيماوية التابع للأمم المتحدة، آكي سيلستروم، بالقول إنه يجب التحقيق في الأنباء بوقوع هجوم بغاز الأعصاب في سوريا. ونقلت وكالة الأنباء السويدية عن سيلستروم قوله إنه لم ير سوى لقطات تلفزيونية وإن ضخامة عدد القتلى المذكور يثير الريبة.

دوليا، أعلن وزير الخارجية البريطانية وليام هيغ أن بلاده سترفع تقريرا بوقوع هجوم بأسلحة كيماوية في سوريا إلى مجلس الأمن، مطالبا الحكومة السورية بالسماح لمفتشي الأمم المتحدة بالوصول على الفور إلى المكان، بدورها، طالبت فرنسا فريق التحقيق الدولي بالتوجه إلى الغوطة الشرقية. كذلك طالبت السعودية بعقد جلسة لمجلس الأمن.

في المقابل، نفى التلفزيون السوري الرسمي ووكالة الأنباء السورية استخدام أي سلاح كيميائي، فيما اعتبر وزير الإعلام السوري عمران الزعبي في حديث لـ"الميادين" أن "كل الكلام عن استخدام الكيميائي هو حملة إعلامية خليجية"، مشيرا إلى أن "عناصر إرهابية تستخدم المدنيين كدروع بشرية".

أطفال سوريا يعانون بشكل كبير من العنف

جيسيكا إلفوت

قامت منظمة "أنقذوا الأطفال" Save the Children الخيرية بنشر صور مروعة لأطفال مهجرين هاربين من الحرب الأهلية في سوريا.

قالت المنظمة الإغاثية أن الأطفال يموتون على قارعة الطريق، فيما تحاول العديد من العائلات يائسة الهرب من الصراع الدامي.

تقول منظمة حماية الأطفال أنها تكلمت إلى مدنيين فروا حديثا من البلاد وقد تحدثوا عن "رحلة الموت" التي افترق فيها الأطفال عن ذويهم.

نقلا عن المنظمة الخيرية، فقد تُرك طفل في الثانية عشرة من عمره ليموت وحيدا بعد أن قتلت أمه. فقد أصيب بشظايا وأصبح على درجة من الوهن نتيجة الجروح بحيث لم يعد قادرا معها على متابعة الرحلة.

قال جستين فورسيث، رئيس جمعية حماية الأطفال، "تظهر القصص المخيفة التي جمعناها من اللاجئين خلال الأيام القليلة الماضية، أن الأطفال هم من ينوء بالعبء الأكبر من الصراع في سوريا" "يتعرض الأطفال في سوريا للقتل والتعذيب، كما ويتم تجنيدهم كمقاتلين. إنهم يتعرضون للانتهاكات بأعداد مخيفة"

"يتم إبعاد الأطفال عن ذويهم، ومنهم من يموت على قارعة الطريق متأثرا بجراحه"

"في هذه الأثناء تضع الظروف السيئة ثقلها الأكبر على الضعفاء والأكثر هشاشة من الرضع"

"ملايين الأطفال عالقون في مناطق لا يمكن للمساعدات الإنسانية الوصول إليها، ولا خيار أمامهم سوى الهرب"

"يزيد عدد الأطفال عن نصف مجموع اللاجئين السوريين. وهناك الملايين من المآسي الشخصية التي تكمن وراء الإحصائيات المريعة للمدنيين الفارين من بلادهم"

أعلنت منظمة الأمم المتحدة في بيان لها الأسبوع الماضي أن أطفال سوريا يعانون من "ما يمكن أن يكون الوزر الأعظم" في العالم، وفقا لممثلة الامم المتحدة الخاصة السيدة ليلى زروقي، أثناء تقديمها لتقرير جديد حول الأطفال والنزاعات في العالم.

اتهم التقرير قوات النظام السوري بتعذيب الأطفال الذين يشك بوجود صلة بينهم وبين الثوار، كما اتهم الثوار باستخدام الأطفال في مواجهات قتالية فعلية وفي عمليات المساندة، كاستخدامهم لايصال التعزيزات والرسائل.

الصراع "الأسود" في الشمال

سلام السعدي

قبل نحو شهرين، أعلن وزير النفط السوري سليمان عباس عن أن الحكومة ستخصص ٥٠٠ مليون دولار شهريا لاستيراد المشتقات النفطية. المبلغ الضخم بدا حينها مؤشرا على جفاف حاد وغير مسبوق في الثروة النفطية الحكومية. وهو ما يتأكد اليوم مع اعتراف الحكومة، وللمرة الأولى، بتراجع الإنتاج النفطي لهذا العام بنسبة ٩٠ في المئة، ومع أزمة بنزين تكاد تصير دائمة.

لا تلبث أزمة البنزين في سوريا أن تحل، حتى تعود مجددا أقوى مما كانت عليه. فقبل عيد الفطر بأيام، تضخمت طوابير السيارات أمام محطات البنزين الذي يبيع بعلاوة سعرية تراوحت بين ١٠-١٥ في المئة بحسب المحطة والازدحام، فيما وصلت العلاوة في السوق السوداء إلى ٣٠ في المئة.

على وقع هذه الأزمة، اعترفت وزارة النفط والثروة المعدنية بأن إجمالي إنتاج النفط في سورية خلال النصف الأول من هذا العام بلغ نحو ٣٩ ألف برميل يوميا، مقابل ٣٨٠ ألفا قبل منتصف آذار ٢٠١١. وأفادت الوزارة في بيان أن إنتاج الغاز يبلغ حاليا ١٦.٧ مليون متر مكعب يوميا، في مقابل ٣٠ مليونا قبل اندلاع الثورة.

ولم يغب عن وزير النفط والثروة المعدنية سليمان العباس، تذكير السوريين بأن الحكومة قد دعمت المشتقات النفطية بمبلغ يتجاوز ٥٦٦ مليون دولار خلال النصف الأول من العام الجاري، وذلك "تلبية لاحتياجات السوق المحلية من هذه المشتقات". وتشكل قيمة هذا الدعم ما نسبته ٩ في المئة من موازنة الدولة.

ما تعمّد الوزير تجاهله، أن الحكومة، وعلى مدار الأشهر الخمسة الماضية، كانت قد خفضت من قيمة دعم المشتقات النفطية من خلال رفع أسعارها. إذ رفعت أسعار البنزين والمازوت والغاز بنسبة وسطية تجاوزت ١٠٠ في المئة.

النظام الذي فقد السيطرة على معظم الحقول النفطية في شمال سوريا، بات يسد معظم حاجاته من المشتقات النفطية من خلال الاستيراد. الجزء الأكبر من المستوردات النفطية يسدد ثمنه عبر المقايضة بسلع أخرى، أو بطريقة جديدة كشف عنها رئيس الوزراء وائل الحلقي في أعقاب القرض الإيراني الأخير بقيمة ٣،٦ مليارات دولار، وهي أن تقوم إيران بتوريد المشتقات النفطية شهريا، مقابل حق الاستثمار في سوريا. لا نزال، إذن، في دائرة المقايضة، لكن مقايضة سوريا برمتها هذه المرة!

النفط الذي خسره النظام لم يذهب للمعارضة، بل لأطراف مختلفة. يقول أبو سامر الديري، وهو ناشط في مدينة دير الزور، "إن تقاسم النفط قد تم حتى الآن بحسب مناطق النفوذ. ومن دون معارك حقيقية تذكر، إذ تسيطر العشائر في مناطق نفوذها على الآبار وأنابيب النفط الموجودة، وكذلك الحال بالنسبة لجبهة النصرة، والجيش الحر، والكتائب الكردية". ويضيف، لا توجد رغبة حقيقية لدى جميع الأطراف في الصراع المباشر على الثروة النفطية، الجميع يتمسك بما لديه من ثروة، و يتجنب الصدام الدموي حتى الآن، لكنه صدام قد يقع في أي لحظة".

ويقدّر الباحث الاقتصادي سمير سعيفان عدد الآبار التي تقع تحت سيطرة المعارضة بنحو ١١٣ بئرا، إذ تسيطر كتائب الجيش الحر على آبار المنطقة الواقعة من شرقي الميادين وحتى البوكمال في مدينة دير الزور، بينما تسيطر كتائب جبهة النصرة على الآبار الواقعة إلى غربي الميادين وحتى الرقة. فيما قال رئيس حزب الاتحاد الديمقراطي الكردي صالح مسلم، في تصريح صحافي، أن نحو ٦٠ في المئة من الإنتاج النفطي السوري يقع تحت سيطرة قوات الحماية الشعبية الكردية.

ويقدر سعيفان إنتاج المناطق التي تسيطر عليها الكتائب المسلحة بأكثر من ١٠٠ ألف برميل من النفط الخام يوميا. ولا تستطيع المعارضة، لأسباب تقنية، إنتاج هذه الكمية، غير أن إنتاج نحو ٣٠ ألف برميل يوميا، وبيعها بسعر ٨٠ دولارا للبرميل (السعر العالمي ١٠٠ دولار) سيحقق إيرادات تصل إلى ٧٢ مليون دولار شهريا. هذا فضلاً عن كميات تنتج وتباع محليا، كما يؤكد سعيفان، وهي في حال بلغت ٣٠ ألف برميل أخرى يوميا، وبيعت محليا بسعر ٣٠ دولارا للبرميل، فإنها تحقق إيرادا شهريا يقدر بـ ٢٧ مليون دولار.

هكذا، يسيل لعاب كل الأطراف وهي تقف على عتبة المئة مليون دولار، التي تشكل الحد الأدنى من الإيرادات الغائبة عن خزينة النظام. هي ثروة حقيقية، من المرجح أن تشكل أرضية خصبة لنمو صراعات دموية بين مختلف التشكيلات المقاتلة في تلك المناطق.

رهان السوريين الخاسر

عمر كوش

بعد انطلاق ثورة الخامس عشر من آذار / مارس ٢٠١١ في سوريا، بدأت السياسة بالعودة تدريجيا إلى المجتمع السوري، وراح سوريون كثر يتحدثون ويتجادلون في السياسة، التي حرموا منها طوال أكثر من أربعة عقود. إذ بالرغم من ممارسات النظام الأسدي الهادفة إلى خنق الحياة العامة منذ اليوم الأول للثورة، باستخدام كافة المقدرات والوسائل، بغية تغييب السياسة ومنع الاجتماع والاحتجاج، مهما كان الثمن، فقد تشكلت كيانات سياسية مختلفة، في داخل سوريا وخارجها، تجسدت في صور تنظيمات، اختلفت من حيث قوتها وشعبيتها، وأخذت مسميات هيئات ومجالس ومنابر وتيارات وحركات. وفي سياقها تشكل المجلس الوطني السوري، وهيئة التنسيق الوطني، وتيار التغيير الوطني، والمنبر الديمقراطي، والائتلاف الوطني، وسوى ذلك كثير.

وراهن سوريون كثر، بخاصة في الداخل، على أن تشكل هذه الكيانات السياسية مظلة سياسية للثورة، بل وأن تقود الثورة وتدعمها، وتؤثر على مساراتها، وتساعد حاضنتها وناسها. لكن، وبعد انتظار مديد، تبين أن معظمها إن لم نقل جميعها - بات عالة على الثورة، بدلا من أن تعيلها وتعينها، نظرا لأنها تميزت بتركيبات هشة، وبأداء ضعيف، وانحياز إلى التجاذبات والمماحكات، والمهاترات الشخصية، وضعف الخبرة السياسية، فيما عرفت الثورة السورية تحولات عديدة وعميقة في مسارها، نتيجة توغل النظام بالقتل والمجازر والجرائم، وتحولت من ثورة حرية إلى ثورة تحرر.

ولم تتمكن مختلف تكوينات المعارضة السياسية السورية من مد جسور مع الثائرين السوريين وحاضنتهم الاجتماعية، وحتى تلك الكيانات الهشة، التي أطلقت على نفسها وصف «معارضة الداخل»، مثل هيئة التنسيق وغيرها، بقيت تمثل "دكاكين صغيرة"، تضم شخصيات مترهلة، عاطلة، ومتقادمة سياسيا، ومنبوذة من طرف قوى الثورة، وخصوصا منهم الشباب.

ولعل الائتلاف الوطني، وقبله المجلس الوطني السوري، كانت أمامه فرصة كي يلعب دور المظلة السياسية للثورة وناسها، لكن الأمور لم تكن كذلك، إذ أن كل من المجلس والائتلاف لم يقم أيا منهما بالدور المأمول منه، بمعنى أنه لم ينهض بمهمة دعم الثورة، المطلوبة منه، حيث لم يمأسس أسلوب عمله، عبر لجان ومكاتب متخصصة، ذات استراتيجية واضحة ومحددة، بل احتوت تركيبته العامة على جملة من الشخصيات «المنتهية الفاعلية»، سياسيا وتنظيميا.

وحين تشكل الائتلاف، كرر أخطاء المجلس ذاتها، واختصر عمله على اجتماعات فارغة، شبه دورية، وعلى ما تقوم به شخصية رئيس، لجأ إلى «الاستخارة» في اتخاذ القرارات، بدلا من أن يلجأ إلى هيئة سياسية منتخبة، بالرغم من أنه عين هيئة سياسية لم يستشرها أو يكترث بها هو نفسه، وراح يلوح بالاستقالة أمام وزراء خارجية ما يسمى «أصدقاء الشعب السوري» إلى أن فعلها، ولعل المكتب الوحيد الذي عرف في الائتلاف هو وحدة التنسيق والدعم، إلى جانب المكتب الإعلامي، الذي لم يسمع أحد بدوره الإعلامي، بالرغم من أن طاقمه يضم أكثر من ثلاثين شخصا، معظمهم لا عمل له سوى نشر بعض الأخبار، وتسريب المهاترات، وصولا إلى قيام أحدهم بضرب أحد العاملين معه.

وبعد توسعة الائتلاف، قدمت إلى الهيئة العامة كتلة ديموقراطية، أسهمت في انتخاب رئيس جديد، وهيئة سياسية، وتبين أن الائتلاف بحاجة إلى إصلاح نظامه الداخلي، بل وتغيير، ولا يمتلك أية استراتيجية واضحة، من دون عمل مؤسساتي، ومن دون خطط، سواء لجهة دعم الثورة أم لجهة التنسيق مع الجيش الحر وقيادة أركانه، وسوى ذلك كثير.

ومن المنطقي أن تكون أولى أولويات قيادة الائتلاف الجديدة هي وضع استراتيجية للعمل باتجاه الداخل السوري، وتأمين الدعم اللازم له، والبدء في التواصل مع قوى الثورة في الداخل، وتنظيم المجموعات المسلحة من الجيش الحر وسواه، ودمجها لتشكيل جيش وطني مقاوم للاحتلال الأسدي، من هنا يمكن أن نفهم زيارة أحمد العاصي الجربا، رئيس الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة السورية لمناطق في محافظة درعا، والتصريحات التي أطلقها، وكشف فيها السعي نحو تشكيل جيش وطني، تأكيدا للاستفادة من التطورات التي حصلت على الأرض طوال الفترة الماضية، القاضية بضرورة توحيد فصائل الجيش الحر، ودمجها من أجل حماية المناطق المحررة، والدفاع عن الحاضنة الاجتماعية للثورة.

التتمة في الصفحة.. ٤..

جبهة النصرة تمارس مهماتها

سلامة كيلة

كالعادة تنبهنا إلى خطر «جبهة النصرة» (ومن ثم دولة العراق والشام الإسلامية) بعد أن أصبح مكشوفاً واضحاً. المعارضة تلعلع، ومن دافع عنها إما ساكت أو بات يدينها من دون أن يشير إلى الخطر الذي شكله ذاك الدفاع، والجريمة التي اقترفها. أما الشعب فقد بات في صراع مع مستبد آت من القرون الوسطى، في مظهره وأفكاره وما يريد فرضه على شعب تحرر وتقدم، وكان يعمل على أن يعيش العصر الحديث.

تنظيم «القاعدة» كان امتداداً لـ «المجاهدين العرب» الذين أرسلوا لقتال السوفيات في أفغانستان، و «جبهة النصر» أعلنت أنها فرع له، وكانت «دولة العراق الإسلامية» فرعه العراقي. بالتالي كان من المفترض أن تقييما قد جرى لهذا التنظيم لمعرفة ماهيته، وتحديد الأهداف التي «يقاتل» من أجلها، والأيديولوجية التي تحكمه، وبالتالي هل يفيد في الصراعات السياسية أو يضر؟ وهل أنه حين أعلن عن ذاته في سورية يخدم الثورة أو يضرها؟ خصوصاً أن تجربة دوره في العراق لم تكن بعيدة، وكان واضحاً بأنه خرّب المقاومة (وبالتالي خدم الاحتلال الأميركي). فقد افتعل صراعاً طائفياً، فرض تحوّل المقاومة إلى صراع سني – شيعي، كما فرض سلطة جلبها من أحط القرون الوسطى دفعت المقاومين ينحازون إلى عدوهم (بتشكيل مجالس الصحوة).

وإذا كان هناك بعض التخوّف من وجود بعض الأفراد من هذا التنظيم في الشمال في الفترة الثانية من الثورة، حيث بدأت أشكال من العمل المسلح، فقد كان وضع التنظيم على قائمة الإرهاب الأميركية كافياً لقبوله والترحيب به كفصيل في الثورة، مختلف نوعاً ما، وأصولي، لكنه فصيل من فصائل الثورة، طبعاً من دون التدقيق في تكوينه وأفكاره، وممارساته التي حصلت منذ وقت قريب. والمشكلة أن معظم من هلل له بعد القرار الأميركي هم الذين جهدوا لدفع أميركا (والغرب) كي تتدخل عسكرياً، ويبدو أنهم تبنوا التنظيم كـ «نكاية» فيها، ربما كان هذا العنصر يكمن في اللاوعي، لكنه كان قائماً. لكن ما جعل النكاية ممكنة هو الجهل بالتنظيم. وأكثر هو حالة العجز التي فرضت أن يقبلوا كل من يريد القدوم لـ «قتال النظام». لقد كانوا يريدون من يسقط النظام لكي يصبحوا هم السلطة.

الآن، انكشفت الورطة، وبات التنظيم/ الدولة يفرض سلطته الاستبدادية الشمولية والقروسطية على مناطق تواجده، في الرقة وفي حلب وتل أبيض، وبات يصطدم بالأكراد ويخطف منهم كما خطف من الدروز والاسماعيليين والمسيحيين، والناشطين من كل الطوائف (يمن في ذلك الأب باولو الذي عاش في سورية طويلاً وبات جزءاً منها، ولأنه كذلك طردته السلطة منها). لقد بات يمارس الممارسات ذاتها التي مارسها في العراق، والتي حذرنا منها منذ البدء في مقال سابق (عن «جبهة النصرة، وانسانيتها»). بات يعتقل ويقتل ويخطف، ويفرض قوانينه وسطوته. كل ذلك من دون اكتراث للصراع الدائر مع السلطة من أجل إسقاطها، بالضبط لأن هذه ليست معركته.

تشكل التنظيم من قيادات وكادرات كانت معتقلة لدى السلطة السورية، الذي أفرج عنها في نيسان (أبريل) ٢٠١٢، أي بعد أكثر من عام من اندلاع الثورة، وبعد أن كانت استخدمت اسم «جبهة النصرة» قبل أن يوجد حين قامت بتفجير أمن الدولة في كفر سوسة، وفرع المنطقة للأمن العسكري في الجمارك (في إطار صراع الأجهزة الأمنية الذي فرض سيطرة المخابرات الجوية). ومن ثم أتى «المدد» من قوى إقليمية هدفت إلى تخريب الثورة، وكانت في ذلك على توافق كبير مع السلطة رغم الخلاف الشكلي الذي كان يحكم العلاقة بينها. ومن ثم دخلت مجموعات من تنظيم «دولة العراق الإسلامية» على الخط، وعلى رغم الخلاف الشكلي هنا أيضاً فقد أصبحت دولة العراق هي الأساس، رغم أنها على تبعية للمخابرات الإيرانية.

لماذا كل ذلك؟ لأن السلطة التي قررت في نيسان عام ٢٠١٢ الانسحاب من بعض المناطق نتيجة ضعفها العسكري، قررت أن توجد القوة التي تستطيع استخدامها لإفشال كل إمكانية لتنظيم المناطق «المحررة»، وكرأس جسر من أجل السيطرة عليها مجدداً. ويبدو أن قرار السلطة بحسم الصراع فرض أن تتقدم «دولة العراق والشام الإسلامية» لكي تربك الكتائب المسلحة، وتهيئ الوضع لعودة قوات السلطة (خصوصاً أن كثير من عناصر النصرة كانوا من الشبيحة في العديد من المناطق).

الآن، دولة العراق والشام تمارس «طقوسها» من دون رادع، وحين تشتبك مع قوى كردية (بغض النظر عن تقييمنا لها) تقف الكتائب الأخرى متفرجة، رغم أن الدور سيصلها إذا ما قويت هذه أكثر.

نعود للذين طبّلوا وزمّروا، خصوصاً المعارضة التي تمارس وكأنها هي قيادة الثورة (وهنا الائتلاف)، والتي دافعت عن «جبهة النصرة»، أليس من المطلوب إصدار موقف واضح حاسم بعد كل الذي تمارسه دولة العراق هذه؟ أليس مطلوباً العمل على إنهاء وجودها قبل أن تستحكم أكثر، وتفرض سيطرة السلطة على المناطق «المحررة»؟

المطلوب، بالضرورة، هو تصفية وجود جبهة النصرة ودولة العراق، هذه خطوة حقيقية على طريق إعادة ترتيب وضع حيث يجب أن تكون «الجبهة الداخلية» مؤمنة، لكي يكون ممكناً نقل الصراع إلى «خطوط العدو».

على أمل ألا يظل تعامل المعارضة مع الثورة بالسطحية التي لمسناها هنا، وفي كثير من المواقف، أو ربما يجب أن تنهي تمثيلها الوهمي للثورة، فالثورة مستمرة بقوة الشعب، وبطولة الشباب الذي قرر خوض الصراع إلى النهاية، وأفضل له ان يبقى بلا هادي على أن يكون هاديه فاشل، ويؤشر إلى الوجهة الخطأ.

تتمة: رهان السوريين الخاسر

عمر كوش

ولعل السبب الرئيسي في انفلات العسكرة ومجاميعها في المناطق الخارجة عن سيطرة النظام، أو المحررة، هو غياب مظلة سياسية، قادرة على القيادة، وعلى التأثير، ولا يعدم الأمر وجود أسباب أخرى أيضاً، لكن طريقة تعامل تشكيلات المعارضة مع الثورة وحاضنتها الاجتماعية، مازالت تنهض على قطيعة وانفصال، حيث نسي المعارضون ناسهم في الداخل، ونسوا أن الثورة هي التي أعطتهم الأهلية لكي يتحدثوا باسمها، ومنحتهم القدرة على رفع وتيرة أصواتهم، بعد أن سكنوا الصمت فترات طويلة. والمثير في الأمر أنهم، بعد اندلاع شرارة الثورة، راحوا ينشئون دكاكين صغيرة، نصبوا أنفسهم رؤساء عليها، ونسوا الثورة وناسها، بل وركب بعضهم على الثورة، بوصفها مطية، وراح يزاود على غيره، بالحديث عن بطولاته وفيضانات نضالاته في غابر السنين وحاضر الثورة.

بالمقابل، استمر مدنيون سوريون في فعل مقاومتهم، بالرغم من تراجع مظاهر الحراك المدني السلمي، بعد أن نشأت مجاميع مسلحة، بعضها بعيد كل البعد عن فعل المقاومة، بمختلف مظاهرها. ولعل العسكرة المنفلتة من رباطها وعقالها، أنتجت مظاهر و«هيئات شرعية» و«إمارات»، لها أجندات وأهداف مختلفة عن أهداف الثورة السورية ومطالب ناسها، مع أن الناس في الثورة أحسوا بأنهم أحياء، حين قرروا الخروج من بيوتهم والنزول إلى الساحات والشوارع للاحتجاج على الاستبداد المقيم منذ أكثر من أربعة عقود، وبالتالي، فهم ليسوا بحاجة إلى هيئات وإمارات منحت نفسها شرعية مفقودة، ومشكوك بها، ومطعون فيها، كونها جاءت من أمراء العسكرة وتوابعها، وانبثقت عن مجموعات ليست مضجرة للثورة، ولا قادتها في أي يوم من الأيام، بل استغلت فراغ القوة الحاصل بعد انحسار سلطة النظام الأسدي، الفاقد الشرعية مثلها، كي تحتل الفضاء العام في المناطق المحررة، وتصادر الحريات التي خرج من أجلها الثوار السوريون، وقد تحولت إلى سلطة استبداد جديدة، تحاول إشغال مكان سلطة الاستبداد القديمة، وتقوم بأفعال لا تليق بثورة السوريين، حتى باتت تعيث فساداً في المناطق الخارجة عن سيطرة النظام، وذلك بدلاً من أن تنخرط في حركة المقاومة الشعبية وتكون عوناً لها. وعليه تبدو ضرورة، أن يبرهن الائتلاف بحلته الجديدة على قدرته في إقناع السوريين بأنه يشكل البديل المقنع، من خلال تحوله إلى مظلة داعمة للثورة وناسها، بالفعل والقول، ليس بالكلام والتصريحات والوثائق والأدبيات، بل في الممارسة والسلوكيات.

يتشظى السوريون في الخارج.. ويبحثوا عن هوية

ديمة ونوس

أصعد من محطة الميترو، واحدة وسط عشرات الأشخاص العابرين إلى أعمالهم، بيوتهم، مواعيدهم. وأفكر كم أن الزحام يشعر بالوحشة. غريبة وسط أشخاص غرباء. هكذا هي العواصم الكبرى.

ينتاب القادم من منطقتنا، إحساس قاتم بالغربة، عندما يتأمل هموم هذه الأفواج العابرة بسرعة وبإيقاع مدروس على نبض الدقيقة والثانية خوفا من التأخر. القادم من منطقة تعيش قلق انفجار هنا وصاروخ هناك وخطف واعتقال واغتيال وجوع ونفي وحواجز، سيبتسم ربما عندما يستمع إلى هموم أشخاص مثله يعيشون على الكوكب ذاته، يتحدثون عن الطقس وعن امتعاضهم من تأخر الميترو بضع دقائق عن موعده المحدد وعن الوضع الاقتصادي أو عندما ينشغلون في تحليل التغير المناخي وتأثيره على سياسة الدول ونموها الاقتصادي.

وسط هذا الجمال المفرط حد الوحشة، يحاول السوريون أينما حلوا، أن يعثروا على مكان، على معنى لوجودهم. يلهثون للدفاع عن هويتهم كل على طريقته.

"موزاييك سورية"، مؤسسة ثقافية لدعم اللاجئين، وجدت طريقها إلى وسط لندن حيث نظمت قبل فترة معرضا في غاليري "بي ٢١"، المعرض الذي لاقى إقبالا واسعا خاصة لدى الجمهور البريطاني يضم أعمالا فنية متنوعة لسوريين من الداخل والخارج، عندما يتسلل الزائر إلى الغاليري، ينتابه إحساس بالرهبة، خصوصا أنها تقع وسط حي صاخب تشي الحركة فيه بحياة جميلة بالكاد تعكرها "هموم تافهة" لا تستحق الذكر.

تضم الغاليري طابقين يكشف أحدهما الآخر عبر جدران زجاجية، يطل الزائر على لوحات تتفاوت قسوتها بالقدر الذي تتفاوت فيه قيمتها الفنية، وربما تكون أعمال رسام الكاريكاتير علي فرزات، والصور المعروضة عن أحياء مدمّرة بأكملها، هي الأعمال الوحيدة التي نجت من المباشرة والفجاجة، ليس ثمة أقسى مما تمارسه قوات النظام وشبيحته منذ عامين ونصف تقريبا، ليس ثمة ما هو أكثر فداحة وشراسة وعنفا، وإن جمعنا كل ما صنعته معامل العالم من لون أحمر، وسكبناه دفعة واحدة ومرغنا أيدينا وغمسنا وجوهنا به، لن نستطيع التعبير عما يجري في سوريا.

أفلام قصيرة صنعها نشطاء في الثورة السورية، كانت تعرض في زوايا الغاليري بلا توقف، مثل فيلم "طح" لخالد عبد الواحد، إضافة إلى فيلم "الطوفان في بلاد البعث" للمخرج الراحل عمر أميرلاي، الفيلم الذي يعد الآن، نبوءة سبقت الثورة بسنوات واستطاعت شق طريقها بكل رهافة وبراعة.

المحزن ربما في المعرض، هو أن تجارب معظم الرسامين الشباب لم تستطع الإفلات من الإيديولوجيا في طرحها لقضية الشعب السوري، في الوقت الذي جاءت فيه الثورة متخففة من ثقل الشعارات، متحررة من النخبة ومن القدسية التي غلفت شريحة المثقفين والمعارضين التقليديين على مدى السنوات الماضية، إذ تحوّل بعض المثقفين إلى قديسين، توجيه الانتقادات إليهم بات ينتمي إلى المحرمات، في حين أن الثورة نجحت حتى الآن، إلى جانب كسرها حاجز الخوف والصمت، في تعرية أيقونات لم تكن لتختلف كثيرا عن أيقونات النظام المقدسة.

تجدر الإشارة إلى أن مخاوف كثيرة باتت تحيط بالمؤسسات الثقافية والمدنية التي تأسست بعد الثورة لدعمها، من جهة، تثير تلك المؤسسات غيظ بعض نشطاء الداخل، كونها تقيم نشاطاتها في بلدان أوروبية بعيدا من ضجيج الموت وصخب الاعتداءات اليومية، ومن جهة أخرى، كون الكثير من تلك المؤسسات تدعمه أو تساهم به جهات محافظة، إن كان بالمعنى الديني أو السياسي للكلمة.

من نافذتي يا سوريا

هلا محمد

أرى من نافذتي يا سوريا السماء التي تتصل بسمائك.

من نافذتي أسمع أصوات المدينة، فتترجمها نافذتي نغما نغما إلى نغماتك.

توزع الإيقاعات، والصخب، تحيل عاصمة النور إلى عاصمة الحنين.

لم أكن أنتبه إلى الجغرافيا ولا إلى التاريخ ولا إلى الياسمين ولا إلى أشعار الياسمين قبل الثورة.

أكتفي بما في قلبي من أثر للمكان والزمان، دون أن أعلم أن اقتفاء الأثر سيكون قدري.

الآن تغيب ذاكرتي ساعة المغيب، تحط على عقود الياسمين التي يبيعها الأولاد على باب الجامع الأموي في دمشق.

على أسوار البيوت الدمشقية التي تظهر من ياسمينها ما تبطن الروح منه.

على كورنيش اللاذقية، دانتيل حكايات الحب، قبل هدمه فوق ذاكرة المدينة وذاكرة أهلها والتاريخ. كي يعلو مرفأ بشع عاطل عن العمل، يحجب الرؤيا عن المدينة، يقطع التواصل بين المدينة وبين بحرها الأزرق الجر، مكان التعايش النادر للمحبة في ذات المكان المفتوح على كل الأزمنة.

على مقاهي الكورنيش وأهل البلد تحط ذاكرتي ساعة المغيب، أرى فساتيننا على المقاهي البحرية، وأصحاب المقاهي أبناء البلد الطيبين، يوزعون الضيافات علينا... نحن نجوم بعضنا البعض في مساءات اللاذقية الطيبة.

على ضفاف الفرات وشواطئ العاصي، على الأغاني، على المقابر، على أسواق حلب القديمة وخاناتها والموائد في بيوتها العز!

وتبقى من هول ما رأت معلقة في لحظة المغيب... النافذة.

من نافذتي... لا أنظر صدقيني، كما العشاق المبتدئين الذين لا يريدون أن يراكموا خبرة في الحب، لا أنظر.

العشاق المبتدئون يغمضون أعينهم تحت سطوة الحب، لأنني لن أراك لا أنظر، ألتصق بالجدار... وأغمض عيني، ضوءك يسافر في الضوء ويوقظ نظري وتتفتح النافذة هكذا كل صباح على نهاراتك الموصولة بنهارات الكون.

هنا يحبون الغرباء، يحبون سماع قصصهم، مآسيهم، الذاكرة المحكية التي تحفظها عن ظهر قلب، ننزلها عن ظهر قلبنا حيثما حللنا، ننزلها على أرصفة المقاهي، على إسفلت الشوارع وفي أجمل الساحات نودع قصصنا، تتداخل في ثقافة المجتمع اليومية العابرة هنا، جزء من ثقافة الاستهلاك صارت.

كرف الحمام تحط قصصنا على أطراف الموائد، كحبات الأرز في الصحون، على الأرض عند الأقدام، ينثرون لحكايات الشجاعات والحرية والموت، الخبز وفتات الكرواسان ونظرات تعاطف واعجاب وخوف أحيانا، يريدون لنهاراتهم أن تمضي بسلام.. ويسكبون الحبر على أوراق تصير جرائد، الحبر يظهر اسمك، كل مقال يظهر فيه اسمك يبكيني، وتستفيق القصص.

لا وقت للكتابة، فبين مجزرة ومجزرة، بين مغيب ومغيب، الوقت من عدم.

يرمي الغريب الكلام ويقيم في كلامه أو يرحل لا فرق، يرحل هو أو هو الكلام الذي يرحل أو يقيم لا فرق.

بنكهة حزن تشبه نور الزمن في روايات الأدب العالمي المترجم إلى لغات العالم يظهر اسمك، وفي اللحظة التي تتفتح فيها حروف اسمك، تتفتح عشبة العيش المشترك المقدسة.

تتشبث عشبة العيش المشترك باسمك، كتمثال حرية على ضفاف الحياة.

النافذة الجمر في غيابك تطل على الرماد.

تسأل جارتي عبر النافذة عنك، فأتدلل في الجواب، أنطق اسمك على مهل كي لا تتعذبي في الحضور الفوري، كي تأخذي وقتك في الغياب.

كل المظاهرات التي تصرخ في الشوارع هنا أسمعها تهتف، سوريا بدا حرية.

ضجيج الشوارع، إيقاعك.

أفلام السينما كلها تتحدث عنك. وقصص الحب، والأغاني، كلها كلها... نغمات بديعة كلما لاح أثرك في البال.

الغربة، ما هي الغربة؟

أنت للغربة وطن.

المشكلة فقط في النبض، في إيقاع النبض، في انتظار الذبحة القلبية، كنفاحة، كنافذتي المعلقة في الزمن التي لا أرى منها سواك.

أنـــا عايـــشة!؟

جهينة خالدية

لغاز السارين صوت غريب، كصوت الأشباح، يخرج من فيديو يمنى وكأنه يخرج من بئر عميق، سحيق.. عند الثانية من صباح الأربعاء.. يلعب هذه الطفلة شبحا.

جاءها مع الغاز ونام في معدتها، رأت يمنى الموت. ومن بعده لم تعد ترى أي شيء. في نسخة الفيديو الأطول لرعب الفتاة. (دقيقة ونصف).. لا تسمع صوت يمنى، لا تسمع إلا صوتا خاويا، جافا، يخرج كالهدير. ترتجف ونحن ننصت بعجز لذلك الوحش الذي أكلها منذ قليل وها هي ترجوه أن يتركها "عايشة".

الشبح في داخل يمنى حكى، وكل ما شاهدنا الفيديو يعود ليحكي أكثر. يحكي عن الساعات السوداء التي شهدتها يمنى ونجت لتنقل لنا بعضا من هول ما رأت. ومع هذا قد لا نعرف يوما ماذا عاشت. كيف تسلل الغاز إلى أفراد عائلتها واحدا تلو الآخر.. كيف سقطوا؟ كم من الوقت مر قبل أن تنقطع أنفاسهم؟ كم مرة نادت أمها؟ كم مرة كمّمت فمها وأنفها بيديها علها تتغلب على الاختناق؟ كم مرة سلت؟ ماذا قلت يا يمنى؟ يا الله؟ أناجيته يا يمنى؟

لولا تلك الدقيقة والثواني الـ٢٠ للفيديو... لولا ذلك الهلع، لما كانت المجزرة التي بالكاد هزت العالم.. لتهز أحدا. خوفك يا يمنى.. وشق المجزرة. سامحينا لكن ذلك الشريط قال الكثير. حكى عن أكثر من سنتين من القتل. ويحكي عن سنين ومجازر مقبلة قد لا يحظى ضحاياها بصوت. وقد حظينا الآن بصوتك. أنت خلافا لتلك الجثث البيضاء الساكنة..حكيت. وأنت خلقتنا.. وأبكيتنا وأيقظت من تجمّد منا.

لولا كلماتك يا يمنى لظننا أن ما حصل لم يحصل. لظننا أنكم نيام. أيموت الناس بهذه الهدوء؟ أين المجزرة؟ لكننا لم نر الدماء. نريد ان نرى الدماء. نحتاجها أن تتدفق شلالات عبر الشاشات لتصدقكم. نحتاج إلى الفيديوهات التي "إعتدنا". نحن مصاصو الدماء. نمتص موتكم بعيوننا.. بمشاعرنا. نمتص دمائكم ببرودتنا.. بملئنا من موتكم وأخبار موتكم كل يوم كل يوم.

وفي هذا اليوم الحزين، تنامون جماعة هكذا بوجوه بيضاء أكثر منها صفراء أو زرقاء. ما هذا الموت؟ أين أشلاؤكم وأين أمعاؤكم وأدمغتكم؟ لا تشبعنا هذه المجازر ولا تكفي الشاشات ولا "ترتقي" إلى معايير "الثورات". كل أطرافكم سليمة وكل عيونكم في أمكنتها وقلوبكم لم تؤكل. وأين الكيماوي؟ أتكذبون؟ هل تعرفون ماذا يفعل الكيماوي؟ إسألوا الناس، قوموا واسألوا الناس.. كلهم يأتوا. بعد المجزرة، يعرفون. الكرة الأرضية كلها باتت خبيرة بالغازات السامة، وها هي الآن فوق جثثكم تناقش أصناف وقوة الأسلحة الكيميائية.

الآن فوق جثثكم، موعد مساءلة إثباتاتكم. كيف تموتون بلا أدلة؟ الصورة لا تكفي ولا الأكفان تكفي ولا الأرقام ولا الطوابير النائمة تكفي.

إحكي يا يمنى.. أنت أمل ضئيل. قولي يا يمنى.. ماذا جرى؟ أنت "عايشة" قولي..

لا لا نريد الدماء. لا نريد تلك الدماء التي سالت من أجساد أطفال قانا والشياح، تلك التي صورها العالم وأبكته.. تلك التي قلبتها مرارا وحفظتها في الوكالات واحتفظت بإعداد الصحف التي نشرتها.. في حين كان النقاش حاميا حول اخلاقيات النشر من عدمه. تلك نظرت اليها عشرات المرات من دون خوف، لأني لم أملك أي شيء آخر أفعله أمام كل ذلك القتل.

لقد متم.. ونحن الآن من المفترض أن نخاف من سوركم؟ نخاف مماذا؟ نخاف على ماذا؟ على مشاعرنا؟ على عائلاتنا؟ نخاف من الكوابيس؟ يا ليتها كانت كوابيس التي جاءتكم. فلتنشر سوركم.. هل من أخلاقيات إعلامية لنشر سوركم؟ أيجدر الخوف على معنويات أو مشاعر أحد من مشهد ١٣٠٠ جسد مسلق وناثم "بهدوء"؟ هذه المرة، الصورة عليها أن تنشر وتحكي. هناك حرمة للموت، لكن تلك الأكفان المصفوفة بالمئات، عليها أن تنشر. هذه المرة لا متاجرة بصوركم. وفي الواقع، حتى القنوات والفضائيات التي عادة ما تسثمر موتكم، وتتقن "الكلوز آب" على جثثكم ووجوهكم، كانت هذه المرة منشغلة بمعارك أخرى، وتتقاتل على نشر رواياتها لمعارك السلطة والدم أيضا في مصر.

وجه يمنى لا يشبه وجه أي طفل. عيناها فارغتان وكأن ساعات الليل الأليم حلت فيهما ولن تخرج أبدا.. تفتح فمها لتصرخ.. تشد عسى ذلك الغاز الذي بلعته يخرج.. تشد لسانها وتمسحه وكأنها كادت منذ قليل أن تبلعه.

أشاهد الفيديو مرة، اثنتين، ثلاثة، عشرة. أستعين بسماعات ليدخل صوت يمنى في أذني. الكثير في كان يحلم بأن يسمع صوت الروح في ذلك الصوت. الكثير في كان يريد أن يرى بعض الأمل في هاتين العينين العاجزتين حد الشلل.. أشاهد الفيديو، وأشعر بأن أطرافي مشلولة. وكل ما أريده هو أن أتألم ولو لثانية مع تلك الطفلة..

أن نتألم معكم أقل ما يمكن. أقل ما يمكن.

نشعر بالعجز يا تلك الروح الموجوعة. خلف مكاتبنا أو في المقاهي أو في الاعتصامات، نكتب المراثي، نذرف الدمع أو نضيء شمعة. أن نضيء شمعة لأكثر من ألف شهيد.. يعني أننا عاجزون. أن نضيء شمعة يعني أننا لا نملك أي شيء آخر نفعله.. لن نستطيع أن نشتري لهم حياة. لن نفهم يوما الصفقات. لن نعرف بماذا ماتوا؟ بالغاز؟ بالصدمة؟ بالهلع؟ من الصراخ؟

الموت ليس أن تقتل ١٣٠٠ شهيد، بل أن تترك خلفهم عشرات الملايين عاجزين. لا ضير إذا في أن نشاهد الفيديوهات عشرات المرات.. بعض الألم يخفف بعض الذنب. أما ذنب أننا أحياء وهم لا.. فلن يخرج منا أبدا، مثلما لن يخرج ذلك الوحش من قلب يمنى. كلكم رحلتم في فجر واحد. إذا من بقي ولمن يثورون الآن؟

المناطق «المحررة»

ديانا مقلد

الشابة والمتحمسة في تحقيقها مناطق الشمال السوري بالمناطق «المحررة»، مستغربة أن يكون تعبير «خارج سيطرة النظام» تعبيرا أدق مهنيا. «إنها بلدات تحررت من ظلم النظام» ترد على بالقول.

«المناطق المحررة»... إنه التعبير الذي دأب المعارضون السوريون على استخدامه منذ أن تحولت ثورتهم من سلمية إلى مسلحة بشيء من الاعتزاز لوصف قرى ومدن ومناطق خرجت عن سلطة النظام السوري. واستمر نفس التعبير مستخدما بشكل واسع رغم كل التبدلات والتحولات والفوضى الحاصلة على الأرض. فعلى قدر ما حمل شعار «بلعن روحك يا حافظ» في بداية الثورة من شحنة غضب عتيق حملت عبارة «المناطق المحررة» ذلك التوق للخلاص من نظام عائلة الأسد الاستبدادي..

ما زلت أقرأ عبارة «المناطق المحررة» في سلب مقالات وتحقيقات عن ارتكابات وتجاوزات يقدم عليها بعض كتائب الجيش الحر وتمارسها بشكل ممنهج كتائب إسلامية متشددة بات التناحر بينها هو العنوان.. في المناطق «المحررة» حاليا تنافس حاد بين «جبهة النصرة» و«الدولة الإسلامية في العراق» تنافس على السيطرة وإعلان الحدود لمن لا يرضخ..

هناك تقارير أن قائدا من «الدولة الإسلامية» طالب بعض كتائب «الحر» الفقيرة التسليح والتمويل بتسليم مناطقهم له فرفضوا فما كان منه سوى أن كشف عن حزام ناسف حول خصره فوافقت الكتائب فورا. ها هي «جبهة النصرة» تكافح للسيطرة في وجه تمدد «الدولة الإسلامية» التي تعد أكثر تطرفا وتشددا.. كلاهما يمارس ترهيبا ضد السكان وعملا لفرض السيطرة أكثر من جهد مواجهة النظام.. أما كتائب الجيش الحر فتلك حكاية أخرى من الانقسام والتشتت..

بت أتأمل طويلا حين أقرأ مقالات وتحقيقات تحمل عبارة «المناطق المحررة»، وأشفق على من يعيش فيها إذ لا شك أن الحيرة بين مرارات متعددة ليست بالأمر الهين. فالمناطق التي خرجت عن سيطرة النظام باتت أسيرة أيضا. صحيح أنها تحررت من سطوة البعث لكنها لم تصبح حرة بعد. والجهد الإعلامي للتمييز بين كتائب «الجيش الحر» وما بين «النصرة» و«الدولة الإسلامية» يكاد يكون منعدما فتختلط الصورة على من هم في الداخل والخارج معا..

ليس الحل الإعلامي أمام هذه الفوضى أن نقول إنها مناطق «محررة»...

يحتاج وصف الوضع في المناطق التي خرجت من سيطرة النظام لتوصيف أكثر دقة وأقل تعميما فهل خروج مدينة عن سيطرة النظام واخضاعها لفتاوى جبهة النصرة وأمراء دولة العراق والشام هو تحرير.. بالتأكيد لا.. فالثورة السورية اليوم على محك مواجهتين الأولى مع كتائب النظام بطائراتها وأسلحتها الكيمائية والثانية مع «النصرة» و«دولة الشام والعراق» بفتاواها القاتلة.. والسوريون ليسوا أمام اختيار بين المشهدين إذ البحث عن مشهد ثالث سار ملحا رغم ما يحفه من صعوبات. جرت مواجهات ومظاهرات في حلب وسراقب تؤذن ببدء ذلك. إيجاد قاموس من الأوصاف لهذا الوضع يتطلب جهدا قد لا تبدو الثورة السورية تملك ترفه لكن ذلك سار اليوم ملحا فمن خطف الأب باولو لا يمكن إلا أن يكون إرهابيا في وعي الثورة تماما كما هو مجرم من يلقي بالبراميل من الطائرات..

إحتلال الفراغ

ألينا عامر

لوكانت المدينة كائناً حياً بابنيتها وشوارعها، ازدحامها وهدوئها، مظاهر الحياة التي تغلي فيها وسكانها الاصليين وللاجئين، الفقر والجوع والاستبداد والقهر الذي تشهده... ترى ماهي الطريقة التي ستختارها للتعبير عن مكنوناتها؟!

هم فنانون وهاوون مجهولو الهوية يتغلغلون في النسيج العمراني للمدينة ليس بهدف تجميلها بالمعنى المتعارف عليه انما ليعبروا عن افكار محظورة ليس من مصلحة الاعلام نشرها، التي وإن قام بنشرها، فإنه يهدف إلى توجيه الافكار وشحن المشاعر تحقيقاً لمصالح جهات معينة والتطرف ضد جهات اخرى. أما هم فلا يطلبون الفراغ، بل يحتلونه احتلالا فنيا وفكريا، جريئا، ليثوروا على واقع يعيشونه.

يأخذ فن غرافيتي فكرته من الرسم والتلوين على الجدران لتشكيل رموز مختلفة وصور، اما الستينسيل غرافيتي يُستخدم فيه قوالب مصنوعة من الكرتون او الورق المقوى، هو شكل من اشكال التعبير الفني ونمط من فنون السخرية والاستهزاء على مفاهيم سياسية واجتماعية على هيئة رسائل بصرية تقدم بصورة ساخرة ومتهكمة وصادم، واستخدامها ليس حكراً على الفنانين.

إذا رجعنا للتاريخ نجد أن هذا النوع من الفنون يأخذ جذوره من سلوك إنساني قديم؛ فتوثيق الاحداث والاساطير والممتلكات والشرائع الدينية على جدران الاوابد المعمارية ووحدات بنائها جار منذ العصور القديمة، وأقرب مثال الحضارة الفرعونية التي وثق أهلها تاريخهم وعلومهم على جدران الاهرامات وشتى المعابد.

إنّ السلوك الانساني هذا مرتبط بالخلود ويستمد فكرته من سعي الانسان – وإن كان بسيطا – لتخليد ذكراه وخوفه من الاندثار في عالم النسيان. فوثق وجوده وهويته واكد عليهما في الأماكن التي سكنها أو زارها، هي صرخته التي يقول فيها "أنا هنا... أنا موجود! مررت من هذا المكان واحتلت جزءا من الفراغ وأطالب بطريقة غير مباشرة بالاعتراف بوجودي!".

إنّ هوية فنانو الغرافيتي تبقى سرية نظراً للرسائل الجريئة التي ينشرونها؛ فهم يعملون على تحدي السلطات وايجاد طرق لإيصال معاناة الشعب اليومية في بيئته من الفقر والجوع وغلاء الأسعار، إضافة إلى هدم الهالة الكاذبة لأيقونات شوهت الفكر البشري والمفاهيم الإنسانية أكثر مما أفادتها... ولكن من أهم رسائلهم مواجهة الطريقة التي يروّج بها للفن ونخبويته والأسعار المبالغ فيها التي يضعها الفنانون لأعمالهم، والحصار دائرة من يستطيع اقتناء الأعمال على طبقة معينة.

سلوك عدواني أم تعبير عن رأي؟

الجانب الآخر للغرافيتي عدا عن كونها ثقافة فرعية تنقل معاناة الشعب وأفكارا محظورة هو... التخريب.

فتحدي السلطات له كأنه ورم يتفشى لا يكمن فقط كونها أفعالاً تخريبية تفرض وجودها دون موافقتها، وإنما يأخذ بعدا آخر هو الخوف من فقدان السيطرة على المجتمع. لقد وضع الباحثان والعالمان الاجتماعيان جورج ال كيلينغ وجيمس كيو ويلسون نظرية (الشبابيك المكسورة) التي تناقش هذا الشأن قائلة:

إن الحفاظ على الفراغات العمرانية في حالة تنظيمية جيدة يمكن أن يوقف ظاهرة التخريب في الحاضر والمستقبل .ويمنع حصول أعمال تخريب أكثر خطورة.

وقد ربطت هذه النظرية بظاهرة الجرائم في المجتمعات واقترح العالمان استراتيجية في نظرهم "فعّالة" وهي حل المشكلات الصغيرة قبل أن تتطور؛ كإصلاح النوافذ المكسورة في فترة زمنية قصيرة يقلل من ميول المخربين لكسر بقيّة النوافذ.

أمّا العالم الاجتماعي نيومان فقد طرح في كتابه (الفراغ العمراني) أنه على الرّغم من أهمّية العمل الذي تقوم به السلطات والجهات المختصة لمكافحة أعمال العنف، إلا أنه ليس كافيا من أجل خلق مدينة آمنة وخالية من العنف، فالمجتمع بجميع طبقاته يجب أن يكون له يد في الحدّ من الجرائم حيث سيسعى لحماية فراغاته والذود للدفاع عنها عندما يشعر بأنّ لديه استثمار فيها.

Soe Vollstedt Christensen

إذا نجد بأنّ الفراغات العمرانية المنظمة النظيفة والمحكمة القبضة من قبل السلطات تبث اشارة بأن العنف سيكون محاسبا عليه، وبالعكس الفراغات غير المنظمة التي تفقد الاعتناء تبث رسالة للمخربين بأن أعمال العنف لن تمر بدون عقاب منصف.

ولكن ماذا عن النسيج العمراني في مجتمعاتنا في ظل حكومات ديكتاتورية، هل شعرنا يوما بالانتماء لهذه الفراغات التي يكاد يكون الفرش العمراني الوحيد المكمل لها عدا عن الاعلانات هو صور للحكام وأبنائهم ومن يخلفهم؟! التأليه المستمر لشخصياتهم أمر تعودنا عليه منذ صغرنا، شعارات وعبارات مستمدة من سياسة أحزاب معينة وأقوال رؤسائها، وصور تنتشر في جميع الفراغات العمرانية والمعمارية العامة التي من المفترض أن تكون أماكن للتفاعل الاجتماعي... كأنها تراقبنا أو تشرف على حياتنا وتذكرنا بوجودها.

ماهي طريقة تواصل المواطن العربي مع الفراغ في مجتمع يكاد يكون فيه حتى التفكير خارج النطاق المتعارف محاسبا عليه؟! فحرية التعبير من منسياتنا أما بالنسبة للإبداع في الشارع فهو جريمة بكل ما للكلمة من معنى!

وبالنسبة لنظرية (الشبابيك المكسورة) فهل أصبح من المنطقي حتى التنويه عنها عندما تستخدم السلطات الفراغات المعمارية لمحاربة أعدائها اللذين يشكل الشعب جزءا ليس صغيرا منهم؟

سلاح من نوع اخر

لقد احتل الغرافيتي والستينسيل غرافيتي دورا مهما في الشارع خلال الحراك السلمي للشعب في المدن العربية في السنوات الأخيرة لاسيما في سوريا التي عبر الغرافيتي فيها عن مطالب الشعب الاساسية وأهم حقوقه ولفت الانظار لأهميته قبل الأزمة؛ حيث ظهر شخصية الرجل البخاخ في مسلسل (بقعة ضوء) التلفزيوني للكاتب عدنان الزراعي، رجل يبخ على الجدران ابسط الافكار التي حرمت على الشعب وينتهي به الامر في سجن مع علب بخاخ تعطى له اوامر في بخ ما يخطر بباله وثم تمحى فورا من على جدران الزنزانة.

إلى أن ظهر الرجل البخاخ على ارض الواقع في ظل الازمة واصبح لكل محافظة رجل بخاخ خاص بها، وتم التعرف على هوية احدهم بفضل الصحفي إياد شربجي الذي التقى به من بعد ان كان معتقلا وفقا لجريدة الاخبار.

لقد دعت الغرافيتي في سوريا لتحرير المعتقلين ونشرت صور لايقونات من الماضي تعبر عن الشهامة والنخوة والاستشهاد في سبيل حماية الوطن والديمقراطية والحرية السياسية مثل الرئيس شكري القوتلي وسلطان باشا الاطرش وابراهيم هنانو ويوسف العظمة... غرافيتي دعت إلى المجتمع المدني ونشرت رسائل لتصور المجتمع الذي سيلي الازمة، حتى أصبح مجرد شراء علبة بخاخ في سوريا يتطلب هوية وموافقة وتوضيح هدف استخدامها من قبل الشاري!

الغرافيتي محارب بشكل قاسي وتعسفي وتمحى بسرعة فائقة أو تعدل بطريقة مهينة وممكن ان تصل عقوبتها للسجن والقتل؛ باعتبار أنها تؤثر في وعي الشارع واللاوعي عنده، وقوتها تكمن في كونها رسائل من قبل اشخاص مجهولين حتى لو لم تكن على ذوق المشاهد لن يتمكن من الحقد على طرف معين بل من المؤكد انها ستحتل جزءا من تفكيره ولن يتمكن من دحضها لأنها تابعة لجهة شحن ضدها. ونظرا للتشدد الامني والعقوبات التعسفية التي يواجهها من يقوم بالغرافيتي، انتقلت من جدران المباني الى جدران الفيس بوك، حيث يؤكد اصحاب الرسائل انه "اذا كانت رسائلهم مستحيلة التنفيذ على ارض الواقع سوف ينشرونها في العالم الافتراضي".

من يسير في احياء المحافظات السورية يشعر بان الصراع امتد لجدرانها، في كل حي نجد غرافيتي مؤيدة للنظام واخرى مناهضة له. واللفت للنظر أن حرب الجدران السورية امتدت إلى ما وراء الاطلسي، ففي مقاطعة اورنج كاونتي في ولاية كاليفورنيا الامريكية جدران حملت الانقسام في الازمة السورية.

في ظل الانقسامات التي تشهدها سوريا فكريا وسياسيا حيث لم يعد الصراع مقتصرا على طرفين انما تشعبت وتفرعت حتى بين صفوف الطرف الواحد، والكلمة الاولى والأخيرة هي لحامل السلاح، اصبح لدينا اكثر من طرف يعمل على مسح ما يكتب ضده... فبعد ان تعقدت الامور إلى هذا النحو، هل يمكن ان نامل ان يتحمل احد مسؤولية غرافيتي بعيدة عن الكره وعدم تقبل الاخر ومناشدة بمستقبل افضل ووقف القتل وقمع الحريات من قبل كل الاطراف؟! ما هو الحد الفاصل بين غرافيتي فنية تحمل رسائل معلنة ومبطنة وتتحدى السلطات وحملة لترويج افكار سياسية ودينية؟! هل رسائل الغرافيتي خالية من ارتباطها بجهات سياسية ودينية متطرفة؟! هل هي صرخة شعب ام تحديد لمساحات ملكية؟! هل هي خالية من الشحن العنصري؟ وهل في يوم ما ستكون صرخة خلود للإنسان العربي وتوثق الاحداث بعيدا عن مبدأ التاريخ يكتبه المنتصرون؟! كلها اسئلة اترك للقارئ محاولة الاجابة عليها.

نظام الأسد دكتاتور الأمس وحامي الأقليات اليوم

بينته شيللر

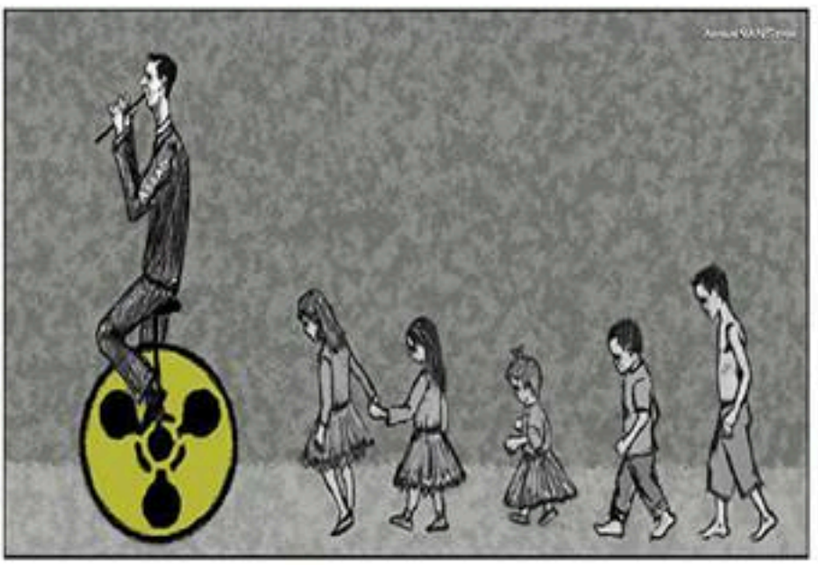

عندما تناقل اللاجئون السوريون في لبنان الأخبار التي تتحدث عن استعداد ألمانيا لاستقبال ٥ آلاف من لاجئي الحرب الأهلية في سوريا، كان هناك الكثير من الحماس. إلا أن هذا الشعور سرعان ما تبدّد عندما عُرف بأن وزير الداخلية الألماني بيتر-هاينز فريدريش وسياسيين آخرين يفكرون بشكل جدّي بإعطاء الأولوية للمسيحيين، لأن هؤلاء يعانون من «اضطهاد خاص» على حدّ زعمهم.

لا شك بأن حماية الأقليات تشكل إحدى الدعامات التي تقوم عليها سياسة حقوق الإنسان. بالإضافة إلى ذلك، ليس هناك من يجادل بأن الأقليات في سوريا من الممكن أن تواجه أخطاراً على المدى البعيد. ففي هذا الصدد حذرت منظمة العفو الدولية بأنه في حال سقوط النظام فإن العلويين، الذين ينتمي لهم الرئيس بشار الأسد، قد يتوجب عليهم الخوف من أعمال انتقامية يمكن أن تحصل بحقهم.

حتى الآن ليس هناك من براهين على حدوث اضطهاد ممنهج ضد المسيحيين في سوريا، سواء من منظمات حقوق الإنسان السورية أو الدولية. إذا كان لا بد من القول بأن جماعة معينة في الوقت الحاضر قد تضررت وبشدة، فإنها الأكثرية السنّية لا شك. طبعاً فكرة أن الأكثرية يجب أن يتم حمايتها من أقلية لا تتوافق بالضرورة مع الصورة التي في أذهاننا. إن الشكوى الدائمة التي يتم سماعها في ألمانيا عن اضطهاد المسيحيين المزعوم مردها لا يعود فقط إلى الدعاية المنظمة التي تقوم بها دمشق، فمثلاً، في حين كان الشعار المفترض والدائم للمظاهرات السورية «علوية عالتابوت، ومسيحيين على بيروت»، قد تم نسخه بسهولة من مقال إلى مقال، لم يكن يسمع به أحد في سوريا نفسها. هناك أيضا بعض رجال الدين من المنطقة، بالإضافة إلى تقارير إخبارية تابعة للفاتيكان، لم يوفروا جهدا في ترويج روايات مرعبة عن عمليات تهجير وقتل جرت ضد مسيحيين سوريين، لم تكن مصدرها في الحقيقة سوى وكالة التسويق والدعاية التابعة للنظام، ولم يجر التحقق من صدقها أبدا.

إلا أن هناك بعض الشخصيات الاعتبارية المسيحية قررت مواجهة هذه الدعاية الرسمية. لعل أشهرهم هو الأب باولو دالا أوغليو، الذي لما يزل مفقوداً في ظروف غامضة في سوريا حتى اللحظة. لقد عاش هذا الرجل ٣٠ سنة في سوريا، كان خلالها يرعى مركزاً مميزاً للتواصل بين الأديان في دير مار موسى بالقرب من مدينة دمشق. منذ فترة ليست ببعيدة وجّه نداءً إلى البابا، رجاه فيه أن يقوم ما بوسعه للتصدي بشكل شخصيّ لـ«التزييف المنهجي للرأي العام الكاثوليكي» الذي يقوم به رجال الدين.

إن اختزال الموضوع وكأن الصراع في سوريا هو صراع طائفي مطلق يناسب تماماً طريقة الإدراك الغربية للأزمات في منطقة الشرق الأوسط. بناء على ذلك، يتم تقديم القصة على أن الإسلاميين الراديكاليين -أي الإرهابيين- يتسيّدون الانتفاضة ضد الأسد. إن وجود هؤلاء هو بلا شك مشكلة كبرى، إلا أن قوتهم الفعلية ليست بتلك الصورة التي توحي بها صفحات الإعلام الغربية، ومن بينها الألمانية أيضا. فالأزمة التي اندلعت مؤخرا بين الجيش السوري الحر وبعض المجموعات الإسلامية أبرزت مجددا أن السلفيين ليسوا هم الطرف الأوحد، ولا المجموعة الأكثر أهمية في تكتل المعارضة.

إن النظام السوري يعرف جيداً التأثير الكبير الذي تتمتّع به تهمة الإرهاب. لقد كان هذا المفهوم ملازماً لدمشق فترة لا بأس بها. ففي الثمانينيات كانت سوريا كفيرها من الدول متّهمة بالتورط بعمليات إرهابية دولية كان مسرحها مدن برلين وآخن. في التسعينيات كادت أن تؤدي الأزمة بين تركيا وسوريا إلى حرب بين البلدين، وذلك بسبب اتهامات لدمشق بدعمها حزب العمال الكردستاني. حتى في الفترة اللاحقة لعام ٢٠٠٥، كان النظام السوري يعاني عزلة سياسية كبيرة بسبب اتهامات له بالضلوع في اغتيال رئيس وزراء لبنان الأسبق رفيق الحريري، فضلاً عن سلسلة عمليات حدثت ضد منتقدي النظام السوري في لبنان.

منذ العام ٢٠١١ فعل قادة النظام كل ما بوسعهم من أجل أن يكون لهم الغلبة. حتى في شهور الثورة السورية الأولى، وذلك عندما خرج الآلاف من الناس إلى الشوارع رافعين أيديهم إلى الأعلى لإظهار أنهم غير مسلحين وعزّل، وحتى قبل أن يوجد شيء اسمه الجيش السوري الحر أو جبهة النصرة، كان الأسد يصف المتظاهرين بالإرهابيين.

لقد كان جليًا بأن المخابرات السورية، وابتداءً من سنة ٢٠٠٣، هي التي دعمت إنشاء شبكات الجهاديين الإرهابية. فبعد أن أسقط الأمريكيين الدكتاتور العراقي صدّام حسين، كان هناك الآلاف من الراديكاليين من المملكة السعودية وليبيا والكويت وبلدان أخرى ممّن آثروا التوجّه صوب العراق، وأخذوا طريق دمشق ممرّاً لهم. لقد تم استقبالهم في المطار ونقلهم بالحافلات إلى الحدود العراقية، وغالبا ما كان هناك معسكرات يتم فيها تحضيرهم للقتال أيضا. في عام ٢٠٠٧ قام الأمريكيون باكتشاف أرشيف كامل حول معلومات تتعلق بمئات الجهاديين الأجانب ممّن تم إحضارهم إلى العراق عبر سوريا. في ذلك الوقت كان لدى دمشق مصلحة استراتيجية لإشغال وتصعيب مهمة القوات الأمريكية في العراق بأكبر قدر ممكن. كان يتوجب فعل أي شيء من أجل عرقلة أي مسعى للرئيس الأمريكي جورج بوش الابن من أجل تغيير النظام في سوريا كما فعل في العراق.

في تلك الأيام كُتبت تقارير مفصّلة عن الدور الشيطاني لسوريا. أما اليوم فيبدو أن هذه التقارير قد تم تنحيتها جانبا بكل وعي من قبل واشنطن ولندن وبرلين. بدلاً من ذلك، هناك زيادة ملحوظة في عدد مؤيدي السيناريو الذي يزعم بأن الأسد وقواته العلوية يقاتلون من أجل سوريا العلمانية ضدّ الجهاديين الذين تتلاعب بهم جهات من الخارج.

وهكذا فقد تم استحضار آلية مخادعة عن الصراع في سوريا، سواءً في التقارير الإعلامية المنشورة عنه أم في الإدراك الذهني حوله. فبدلاً من فهم الثورة على أنها انتفاضة شعب تم قمعها بوحشية عالية من نظام شمولي، يتم تركيز جزء كبير من النقاشات في الغرب حول الأقلية الراديكالية من المنتفضين. لقد تمّ مماثلة الثورة بالسلفيين، أي أولئك الذين يسعون إلى اضطهاد المسيحيين قبل غيرهم، أجلاً أم عاجلاً.

إن الدعاية الأسدية التي تلعب بالمخاوف الغربية تبدو وللحق موفقة جدّاً، ورغم أنها لم تعد تقوى على كسب تعاطف له ولأعماله، إلا أنها قد نزعت القيمة عن المعارضة. فيما يبدو أنّ النقاش حول مواضيع مثل مسؤولية المجتمع الدولي في حماية المدنيين، العدد المرعب للقتلى الذي وصل ١٠٠ ألف قتيل، التقارير التي تتحدث عن ضحايا التعذيب والمختفين قسرياً.... يبدو كل هذا وكأنه تراجع في سلم الأولويات منذ أمد. حتى التقارير والأخبار ذات المصداقية حول استخدام الأسلحة الكيماوية -في السنة الماضية كانت تعتبر هذه النقطة الولايات المتّحدة «خطاً أحمر»- لم تعد تستدعي صرخة مدوّية. غالبا ما يتم المحاججة بأنه ليس هناك من معلومات موثوقة من سوريا. حتى في ظل الواقع الذي يقول بأنه ما من مكان في سوريا يتواجد فيه النظام بتلك السّطوة المعهودة، نسمع الأسطوانة التالية: إن دمشق استطاعت استعادة أجزاء كبيرة من مواقع سيادية، هذه هي الحقيقة الأوحد في هذه الحرب.

حتى الآن هناك جزء كبير من المساعدات الإنسانية يتم تسييره عن طريق الأمم المتحدة، وهذا يعني ببساطة تحت رعاية الحكومة السورية وفي معاقلها. أمّا ما يتعلق بتلك المناطق المحررة في الشمال السوري، والتي يمكن الوصول إليها بسهولة مطلقة، فيتم هناك تتبّع وعرقلة كل قرش/سنت ممكن أن يُدفع، وذلك تحت ذريعة إمكانية وقوع هذه المساعدات في «الأيدي الخطأ». وهناك غالبا لا تصل تلك المساعدات، مما يؤدي في النهاية إلى تقوية ودعم الراديكالية والتطرف، تلك المفاهيم التي يدّعي الغرب خوفه منها.

وهكذا لا يفعل الغرب في سوريا إلا أن يكون سجين توقّعاته السّيئة، بدلا من بذل محاولات جادّة من أجل منع حدوث الأسوأ.

ت: جمال خليل صبح